العربية الذاكرة

مجلة ربع سنوية - العدد الثالث - أكتوبر ٢٠١٩

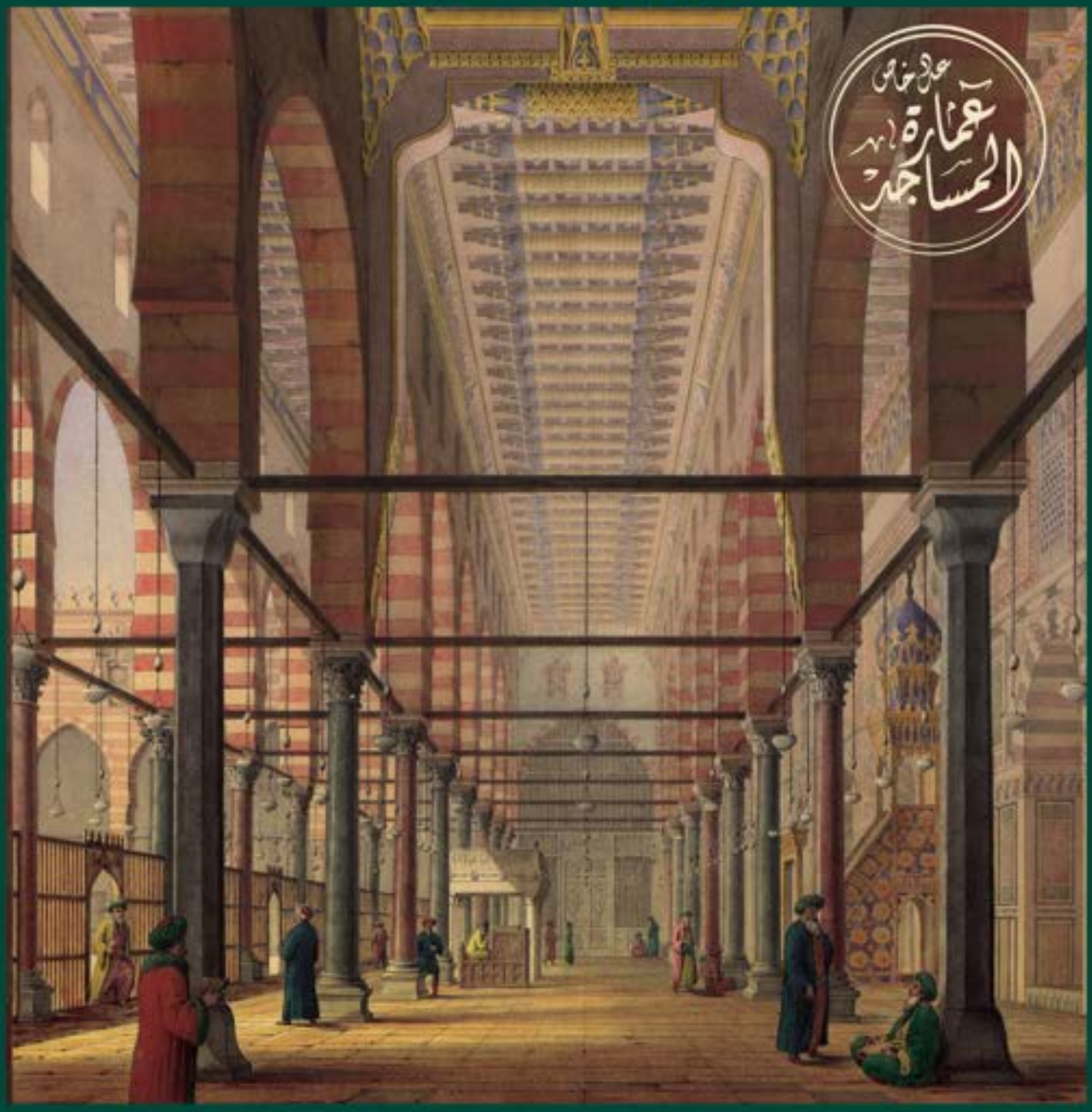

عدد خاص عن عمارة المساجد

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

من إصدارات مكتبة الإسكندرية

نفائس المخطوطات بمكتبة الإسكندرية

للحصول على مطبوعات مكتبة الإسكندرية؛ يُرجى الاتصال بمنفذ البيع:
تليفون: ٤٨٣٩٩٩٩ (٢٠٣)+ داخلي: ١٥٦٠–١٥٦٢
فاكس: ٤٨٢٠٤٧٦ (٢٠٣)+
البريد الإلكتروني: sales@bibalex.org

الفهرس

المساجد الجامعة وتطورها	٢
الجامع الأموي الكبير في مدينة دمشق	١٨
العمارة الدينية بمدينة سامراء	٤٤
الجامع الكبير بصنعاء	٥٤
هوامش وملاحظات حول المسجد الجامع بالقيروان	٦٢
مساجد مدينة فاس	٨٢
مساجد الموصل التاريخية	١٠٨
الآثار الإسلامية في الإسكندرية (المساجد العثمانية)	١١٦
المساجد التاريخية في المملكة العربية السعودية	١٢٤
مساجد موريتانيا	١٣٤
عمارة المساجد والمدارس في موسوعة «المزارات الإسلامية والآثار العربية في مصر والقاهرة المعزية»	١٧٤

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

الإشراف العام

أ . د . مُصْطَفى الفِقي

مدير مكتبة الإسكندرية

الهيئة الاستشارية

أ . د . أَيْمَن فُؤاد سَيّد

أ . د . أَشْرَف فَرّاج

د . مُحَمَّد الجَمَل

سكرتير التحرير

سُوزَان عَابِد

المراجعة والتصحيح اللغوي

فاطِمَة نَبيه

مُحَمَّد حَسَن

التصميم الجرافيكي والخطوط

الحَسَن عِصَام

خَالِد مُصْطَفى

الإسكندرية، أكتوبر ٢٠١٩

طُبعت برعاية

OFID
THE OPEC FUND FOR INTERNATIONAL DEVELOPMENT
Uniting against Poverty

مساجد مدينة فاس

عبق من تاريخ الحضارة المغربية الأندلسية

بقلم: الدكتور رامي ربيع راشد

لمساجد بلاد المغرب الأقصى على وجه العموم، ومدينة فاس على وجه الخصوص؛ مكانة تاريخية كبرى، بما تحمله من خصائص معمارية وسمات فنية فريدة، تختلف كثيرًا عن نظائرها ببلاد المشرق ومصر، ولكون مدينة فاس الحاضرة الأولى لأول دولة عربية إسلامية بالمغرب الأقصى، وهكذا ظلت الحاضرة الأولى عبر العصور الإسلامية المتعاقبة، بما لها من مكانة دينية، وعلمية، وحضرية تفوقت فيها على جميع الحواضر؛ فلا يكاد يخلو زقاق من أزقتها، أو حومة من حوماتها من مسجد للفروض، فضلًا عن مساجدها الجامعة. وإلى هذا أشار ابن أبي زرع الفاسي ضمن حديثه عن دخول الأمير يوسف بن تاشفين اللمتوني تلك المدينة واستسلامها له بقوله: «فلما دخل يوسف بن تاشفين مدينة فاس حصَّنها، وثقَّفها، وأمر بهدم الأسوار التي كانت بها فاصلة بين المدينتين: عُدوة القرويين وعُدوة الأندلس، وردّهما مصرًا واحدًا، وأمر ببنيان المساجد في أحوازها وأزقتها وشوارعها، وأي زقاق لم يجد فيه مسجدًا عاقب أهله وأجبرهم على بناء مسجد فيه». وفي العصر الموحدي، يفيد أيضًا ابن أبي زرع في موضع آخر بقوله: «وانتهى عدد مساجدها في أيام المنصور الموحدي وولده محمد الناصر إلى سبعمئة واثنين وثمانين مسجدًا».

مع العصر المريني، تبدأ مدينة فاس مرحلة جديدة من مراحل تطورها العمراني؛ إذ أمر الأمير أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق المريني في عام ٦٧٤هـ/ ١٢٧٥م ببناء مدينة ملكية جديدة إلى جوار المدينة الأم من جهتها الغربية، وهي المعروفة بـ«فاس الجديدة»، والتي شهدت هي الأخرى بناء عدد لا بأس به من المساجد الجامعة ومساجد الفروض خلال ذلك العصر، وهو ما يبرز في النهاية مدى ما تمتعت به تلك المدينة الحاضرة من مكانة عمرانية مهمة مع تعاقب الدول الحاكمة، كان للمسجد فيها النصيب الأوفر؛ إذ هو الرمز الدال على المدينة الإسلامية.

ونستعرض هنا بصورة موجزة بعض أهم مساجد تلك المدينة الجامعة وغير الجامعة؛ من حيث تاريخ إنشائها، وأهم خصائصها المعمارية والفنية، فضلًا عما تميزت به جميعًا عن مساجد بلاد المشرق ومصر، وذلك على النحو التالي:

جامع القرويين

يقع بعُدوة القرويين من فاس البالي، ورغم هذا، فهو القلب النابض بالمدينة كلها، بما له من مكانة دينية وعلمية كبرى، وكفاه فخرًا وشرفًا أنه أقدم جامعة في العالم الإسلامي. ولذلك، فلا تذكر مدينة فاس إلا وهو الرمز الدال عليها في كل مكان وزمان.

تفيد المصادر التاريخية أن تأسيس هذا المسجد الجامع يرجع إلى عصر دولة الأدارسة، وإلى عهد يحيى بن محمد بن إدريس ابن إدريس على وجه التحديد، كما تشير أن الذي أمرت ببنائه أمّ البنين فاطمة بنت محمد الفهري القيرواني عام ٢٤٥هـ/ ٨٥٩م، من مال ورثته عن أبيها أو زوجها، وكان تخطيطه أربع بلاطات (أروقة) وصحنًا صغيرًا، ومحرابه في موضع الثريا الكبيرة الآن، وطوله من الحائط الغربي إلى الحائط الشرقي مائة وخمسين شبرًا، وله صومعة (مئذنة) غير مرتفعة بموضع القبلة التي على رأس العنَزة الآن.

لم يزل جامع القرويين على تلك الحالة المعمارية، إلى أن تغلب أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر الأموي على بلاد المغرب الأقصى، فبايعته مدينة فاس فيمن بايعه، فولّى عليها عاملًا له من زناتة يُدعى أحمد بن أبي بكر الزناتي، فكتب إلى عبد الرحمن الناصر يستأذنه في إصلاح الجامع والزيادة فيه، فأذن له بذلك، وبعث له بمال كثير من أخماس غنائم الروم، وأمره أن يصرفه في بنائه، فزاد فيه من ناحية الشرق، وناحية الغرب، وناحية الجوف، وهدم صومعته القديمة التي كانت فوق العنزة وبنى الصومعة التي به الآن.

الجدير بالذكر أن هذه الصومعة هي أقدم نموذج باقٍ ببلاد المغرب الأقصى يعكس النمط التقليدي لصوامع بلاد المغرب والأندلس؛ حيث يرجع تاريخ بنائها إلى تلك التوسعة التي قام بها أحمد بن أبي بكر الزناتي عام ٣٤٥هـ/ ٩٥٦م. ونظرًا لما تتسم به الصومعة من بعض الخصائص المعمارية على غرار مآذن بلاد الأندلس في عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦-٢٣٨هـ/ ٨٢٢-٨٥٢م)؛ فإن هذا مما يَحمل على الاعتقاد بأن انتشار هذا النمط التقليدي ببلاد المغرب الأقصى فيما تعاقب من العصور الإسلامية، إنما كان تحت التأثير الأندلسي القرطبي، ابتداءً من صومعة جامع القرويين بمدينة فاس.

جاءت دولة أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين المرابطي (٥٠٠-٥٣٩هـ/ ١١٠٦-١١٤٤م)، فكثرت العمارة بمدينة فاس،

صومعة (مئذنة) جامع القرويين.

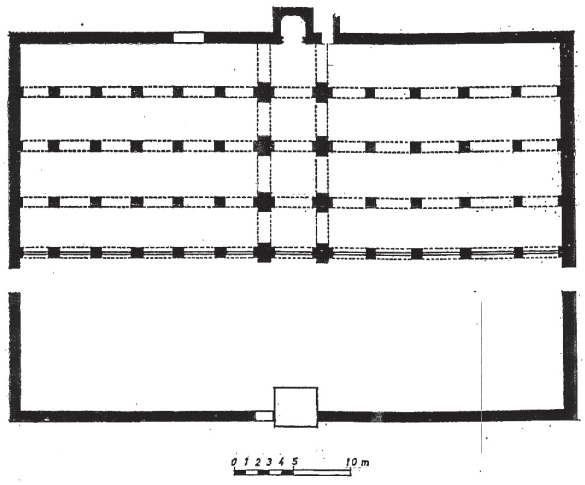

مسقط أفقي لجامع القرويين؛ المرحلة المبكرة من عصر دولة الأدارسة.

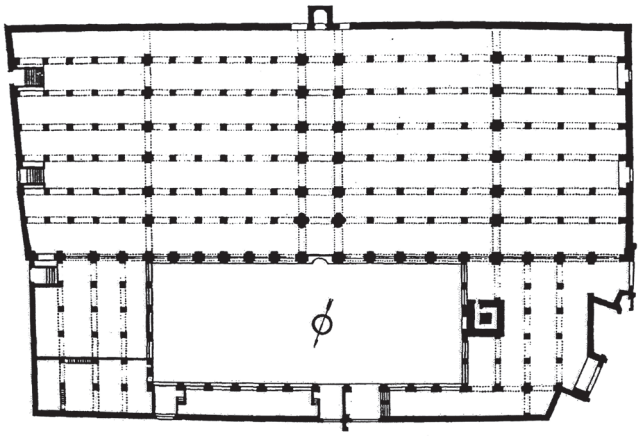

مسقط أفقي لجامع القرويين؛ التوسعة التي تمت في عهد عبد الرحمن الناصر الأموي.

فضاق الجامع بكثرة الناس أيام الجمعة، حتى إنهم يصلّون بالأسواق والشوارع، فاجتمع الفقهاء والأشياخ وتكلموا في ذلك مع قاضي المدينة الفقيه محمد بن داود، فأعلم القاضي أميرَ المسلمين بما رُفع إليه من أمر الجامع واستأذنه بالزيادة فيه، فأذن له، وكانت التوسعة من قِبْلَته، شرقه، وغربه، فتضاعفت مساحة الجامع. وفي تلك التوسعة المرابطية، شهد جامع القرويين نقلة فنية غير مسبوقة في تاريخ مساجد بلاد المغرب الأقصى، تحت وطأة التأثيرات الفنية الأندلسية المتدفقة بشدة. ولا تزال نقوش المحراب والقبة المقرنصة التي تعلوه، بالإضافة إلى القبة الكبرى التي تليها، وكذلك عقود بيت الصلاة نصف الدائرية شديدة التجاوز بما يتخللها من عقود فستونية ومفصصة، فضلًا عن تلك التيجان الرائقة المجلوبة من خرائب مدينة الزهراء – التي أمر بتأسيسها الخليفة عبد الرحمن الناصر بقرطبة – التي نشهد حضورها بكلٍّ من المحراب، وأبواب مصلى الجنائز، وأيضًا في القبة الملحقة بهذا المصلى الجنائزي، وأخيرًا، التغشيات النحاسية لبعض أبواب الجامع؛ لا يزال كل هذا شاهدًا بلا ريب على عمق التأثير الأندلسي بوجهيه المعماري والفني في تلك التوسعة المرابطية، التي وضعت البصمات الأخيرة في عمارة هذا الجامع إلى الوقت الحاضر.

وبالرغم من اكتمال عمارة الجامع خلال هذه التوسعة المرابطية (٥٢٨-٥٣٨هـ/ ١١٣٣-١١٤٣م)، فإن جامع القرويين ما يزال محل إجلال وإكبار من كافة الحكام والسلاطين الذين تعاقبوا

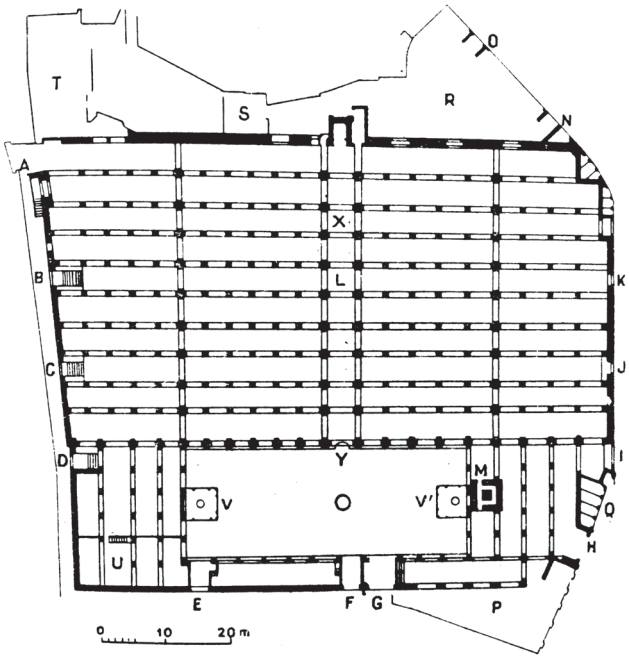

مسقط أفقي لجامع القرويين؛ توسعة المرابطين.

على الحُكم ببلاد المغرب، بما أولَوه من أعمال إصلاح وتنميق لطيفة زادت من عمارة الجامع وفنونه بهاءً وجمالًا. ففي العصر الموحدي، وعلى عهد الخليفة الناصر الموحدي عام ٦٦٠هـ/ ١٢٠٣م تحديدًا، عُلّقت الثريا الكبرى التي تتوسط البلاط المحوري ببيت الصلاة من هذا الجامع، والتي لا نظير لها ببلاد المغرب الأقصى، بما لها من قيمة فنية رفيعة.

جامع القرويين؛ واجهة المحراب والقبة التي تعلوه.

جامع القرويين؛ القبة المقرنصة التي تلي المحراب بالبلاط المحوري.

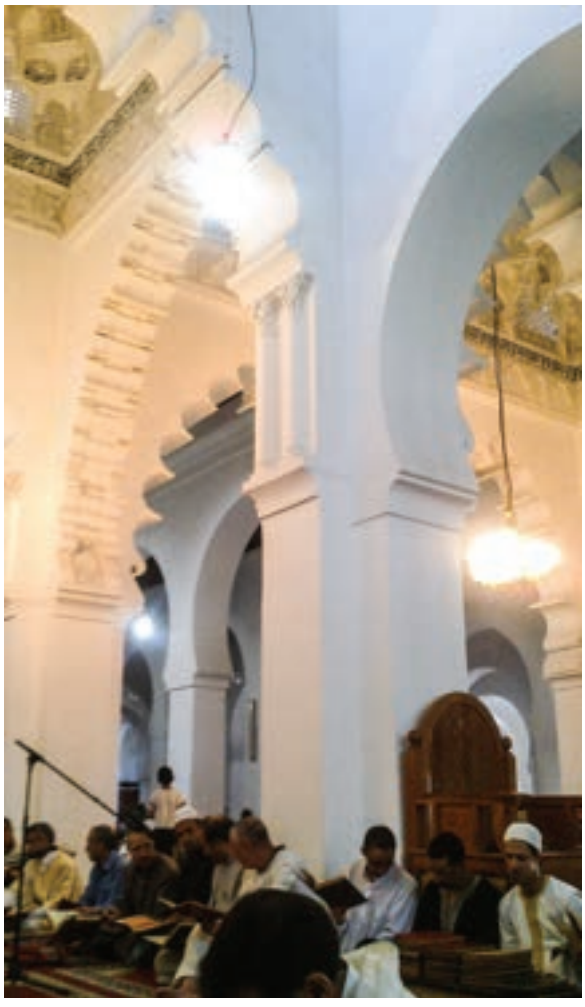

جامع القرويين؛ عقود بيت الصلاة.

نماذج متعددة من تيجان الأعمدة في جامع القرويين.

جامع القرويين؛ الثريا الكبرى.

وفي العصر المريني، عُلّق أيضًا الناقوس الكبير بنهاية البلاط المحوري، وكان قد أُلفي بجبل الفتح من بر الأندلس حين افتتحه المسلمون على يد الأمير عبد الواحد بن أبي الحسن المريني، فأمر أبو الحسن أن يُعلق في موضعه هذا من جامع القرويين، مع بناء قبة جديدة فوقه، وذلك عام ٧٣٧هـ/ ١٣٣٦م. وإلى عهد أبي عنان فارس بن أبي الحسن المريني ترجع خزانة المصاحف المجاورة لباب بيت الإمام من جدار قبلة الجامع، وذلك في عام ٧٥٠هـ/ ١٣٤٨م، حسب ما يفيد النقش التسجيلي لها، هذا بالإضافة إلى خزانة الكتب التي أمر بعملها كذلك أبو عنان فارس بهذا الجامع من نفس العام المذكور، كما هو بالنقش التسجيلي لها.

وخلال العصر السعدي، تزين صحن جامع القرويين بقبتين رائقتين بطرفي الجهتين الشرقية والغربية؛ الأولى بالجهة الشرقية، من عهد المنصور أحمد السعدي ٩٩٦هـ/ ١٥٨٧م، أما الثانية فمن عهد حفيده عبد الله بن محمد الشيخ ١٠١٨هـ/ ١٦٠٩م، وكلاهما – مع الخَصة (الفسقية) التي تتوسط أرضية الصحن – ينقلان صورة حية من بهو السباع بقصور الحمراء بغرناطة.

وفي العصر العلوي، وعلى عهد المولى إسماعيل تحديدًا (١٠٨٢-١١٣٩هـ/ ١٦٧٢- ١٧٢٧م)، شهد الجامع بعض أعمال الإصلاح والتنميق، والتي منها تلك العنَزة التي تتقدم البلاط المحوري ببيت الصلاة.

أحد أبواب جامع القرويين المصفحة بالنحاس.

هكذا يحكي جامع القرويين بعمارته وفنونه تاريخ عشرة قرون من عُمُر الزمان، تثبت كلها – عن جدارة – مكانة ذلك المسجد الجامع الجامعة بمدينة فاس.

جامع القرويين؛ الناقوس المريني والقبة التي تعلوه بالبلاط المحوري.

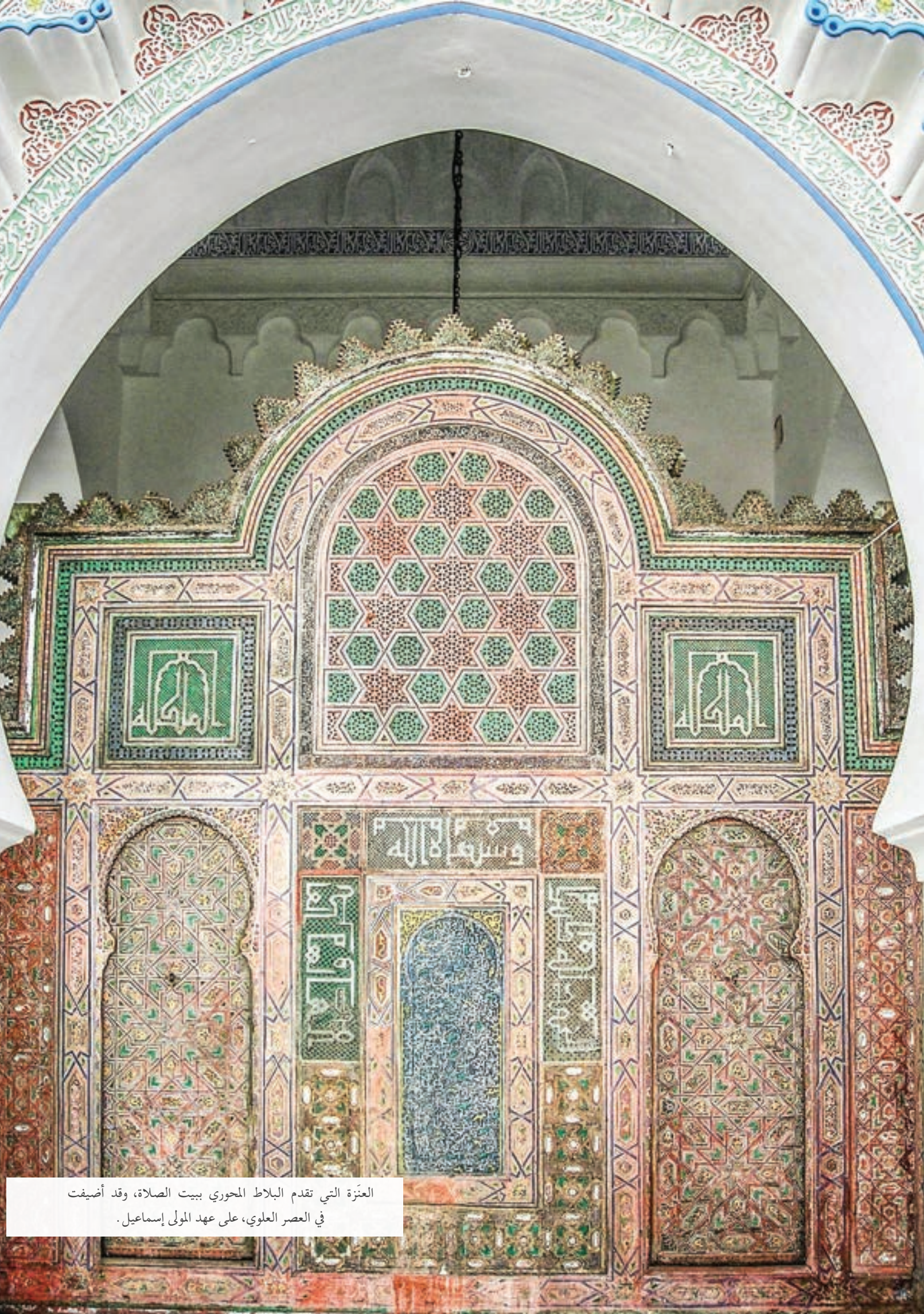

العنَزة التي تقدم البلاط المحوري ببيت الصلاة، وقد أضيفت في العصر العلوي، على عهد المولى إسماعيل.

جامع الأندلس

يقع هذا المسجد الجامع بعُدوة الأندلسيين بالجهة المقابلة لعُدوة القرويين، ويحظى كذلك بمكانة روحية جليلة في نفوس أهل المدينة عامتهم وخاصتهم، وإن كانت لا تربو - بلا شك - على مكانة صنوه جامع القرويين. ويرجع تاريخ بناء هذا الجامع أيضًا إلى عام ٢٤٥هـ/ ٨٥٩م، وهو ذات العام الذي شُرع فيه كذلك في بناء جامع القرويين، وذلك على يد مريم بنت محمد الفهري؛ أخت فاطمة؛ بانية جامع القرويين، من ذلك المال الذي ورثتاه عن أبيهما.

لا تذكر المصادر التاريخية إفادات حول تخطيط وعمارة هذا الجامع حين تأسيسه، على خلاف جامع القرويين كما سبق ذكره. ولعل التزامن في تاريخ بناء الجامعَين في عام (٢٤٥هـ/ ٨٥٩م)، بأمر من الأختين فاطمة ومريم، يحمل على الاعتقاد بأن تخطيط جامع الأندلس وقت تأسيسه كان مشابهًا إلى حد كبير - إن لم يكن مطابقًا - لتخطيط جامع القرويين.

كذلك، ومثلما شهد جامع القرويين توسعة كبرى عام ٣٤٥هـ/ ٩٥٦م، في عهد أحمد بن أبي بكر الزناتي؛ عامل أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر على مدينة فاس، فإن جامع الأندلس شهد هو الآخر توسعة مهمة في نفس الفترة، هذا على الرغم من التضارب الحاصل عند ابن أبي زرع الفاسي، الذي يفيد في موضع من كتابه «الأنيس المطرب»، أن الجامع شهد - إلى جانب جامع القرويين - توسعة خلال تلك الفترة، حدودها باقية إلى الآن على حد قوله، وفي موضع آخر يصرح بقوله: «وأما جامع الأندلس فلم يزل على ما بُني عليه أولًا، لم يزد فيه أحد زيادة إلى سنة ستمئة، فأمر أمير المؤمنين محمد الناصر ببنائه وإصلاحه وتجديد ما تهدم منه». ولعل مما يرجح أن الجامع شهد زيادة - كجامع القرويين - على عهد أحمد بن أبي بكر الزناتي، تلك الصومعة التي لا تزال باقية إلى الوقت الحاضر، والتي جاءت على غرار صومعة جامع القرويين المؤرخة بعام ٣٤٥هـ/ ٩٥٦م، وهو ما يؤكده كذلك الجزنائي بقوله: «يُذكر أن أحد عمال الناصر لدين الله المرواني، حين تغلبوا على بعض بلاد المغرب، زاد فيه زيادات من جملتها الصومعة التي فيه، وذلك في جمادى الأولى سنة خمس وأربعين وثلاثمئة حسبما كُتب في عتبة بابها».

ومما سبق يمكن القول إن الجامع عرف خلال تلك الفترة زيادة مهمة؛ بحيث أصبح يتألف بيت الصلاة فيه من ست بلاطات (أروقة) تمتد من الشرق إلى الغرب مع صحن فسيح، حسب ما أفاد به أبو عبيد الله البكري (توفي ٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م)، في مسالكه ضمن حديثه عن عدوة الأندلسيين من مدينة فاس.

لم يشهد جامع الأندلسيين - على خلاف جامع القرويين - توسعة أخرى خلال العصر المرابطي، وإنما تشير المصادر التاريخية إلى أنه ظل على ما كان عليه من التوسعة الزناتية، إلى أن أُنهي إلى الناصر الموحدي عام ٦٠٠هـ/ ١٢٠٣م أنه يحتاج إلى الإصلاح والبناء، فأمر ببناء الباب الكبير الجوفي المدرج، كما أمر ببناء سقاية ومدخل لبيت صلاة النساء، يعلوهما مصلية (غرفة) لأئمة الجامع عن يمين الخارج من هذا الباب المدرج، بالإضافة إلى دار وضوء بالقرب من ذلك الباب تحاكي التي بجامع القرويين في عام ٦٠٤هـ/ ١٢٠٧م. وعلى الرغم من تلك الإفادات التي تؤكد على عمليات الإصلاح والتجديد فقط، فهناك مَن يرى أن الجامع هُدم وأُعيد بناؤه في تلك الفترة على عهد الخليفة الناصر.

ومن بين التحف الفنية الفريدة التي ترجع إلى هذه المدة من العصر الموحدي، تلك العنَزة المطلة على صحن الجامع بالبلاط المحوري من بيت الصلاة، والتي لا تزال تحمل آثار نقش تسجيلي نصه: «وكان الفراغ منها في شهر محرم عام ستة وستماية». وما يجدر الإشارة إليه هو أن هذه العنَزة هي أقدم مثال قائم لتلك العنَزات بمساجد بلاد المغرب الأقصى، والتي اتسمت بالبساطة من الناحية الفنية، خلافًا لما آل إليه الأمر في العصر المريني[1]، والذي شهد الجامع خلاله أعمال إصلاح وتجديد، وكان من بين آثار ذلك العصر خزانة الكتب التي ألحقها الأمير أبو سعيد عثمان بن أحمد بن أبي سالم المريني عام ٨١٦هـ/ ١٤١٣م، كما هو مسجل بنقشها التأسيسي، الموجود في الوقت الحاضر - في غير موضعه - بحجرة إمام الجامع المجاورة لباب الصومعة.

وفيما يبدو، فإن الجامع لم يشهد أعمال إصلاح وتجديد خلال العصر السعدي (٩٦١-١٠٦٩هـ/ ١٥٥٣-١٦٥٩م)، وهذا على خلاف الحال في العصر العلوي؛ إذ قام السلطان المولى إسماعيل ابن الشريف ببعض أعمال التجديد، التي كان منها تلك السقاية الملحقة بالبائكة الشمالية من الصحن على اليسار المواجه للباب الكبير المدرج، إذ لا يزال هناك نقش تسجيلي يفيد بذلك بتاريخ عام ١٠٩٣هـ/ ١٦٨٢م.

ويعرف أيضًا ذلك المسجد الجامع بعدوة الأندلسيين من فاس البالي، تاريخًا حافلًا من الأهمية المعمارية والفنية طوال العصور الإسلامية المتعاقبة، وإن كانت لا ترتقي في الوقت ذاته إلى تلك الأهمية التي حاذها جامع القرويين؛ صنوه بالعدوة الأخرى المقابلة.

(١) وهو ما يتضح من كلام الجزنائي ضمن وصفه للعنَزة المرينية بجامع القرويين بقوله: «وفيها من غرابة الصنعة، ونفاسة الصبغة، وإتقان الألصاق، ودقة الخرط والنقش، وجلالة الإحكاء؛ ما يقضي بالعجب ويصرح بالإعجاز».

جامع الأندلس بعدوة الأندلسيين بمدينة فاس؛ صحن المسجد.

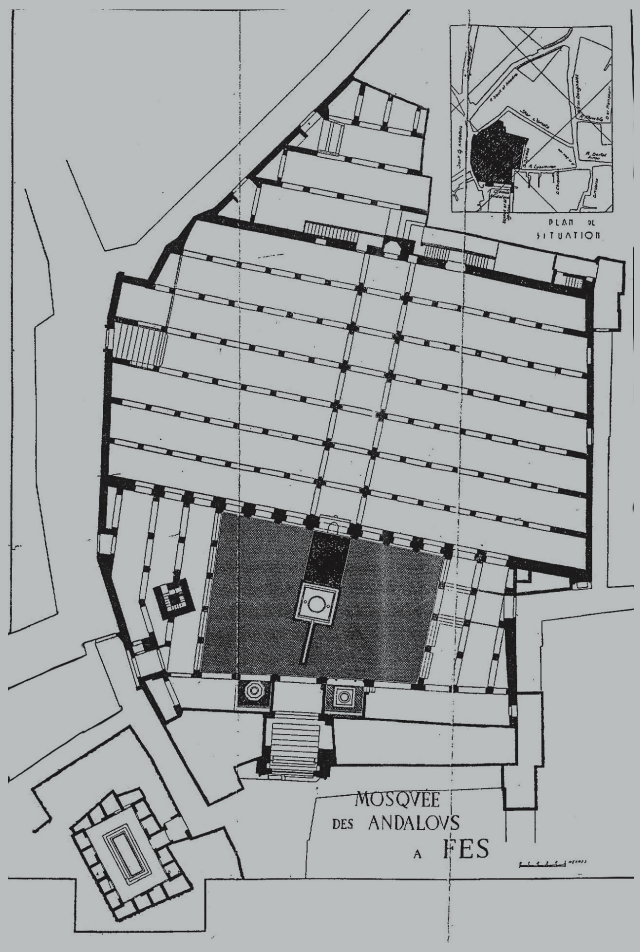

مسقط أفقي لجامع الأندلس بمدينة فاس، في عهد الناصر الموحدي.

جامع الأندلس؛ الباب المدرج.

جامع الأندلس؛ العنَزة.

جامع الأندلس بعدوة الأندلسيين بمدينة فاس.

الجامع الكبير بفاس الجديدة

الجامع الكبير؛ هو المسجد الجامع (الأعظم) بتلك المدينة الملكية؛ فاس الجديدة التي أسسها الأمير أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق عام ٦٧٤هـ/ ١٢٧٥م، كما سبق الإشارة إليه. وعن هذا يقول ابن أبي زرع: «ولما تم سور هذه المدينة السعيدة فاس الجديد بالبناء، أمر ببناء الجامع الكبير بها للخطبة، فبُني على يد أبي عبد الله بن عبد الكريم الحدودي، وأبي علي بن الأزرق والي مكناس، والنفقة فيه من مال معصرة مكناسة، ولم يخدم في بناء هاذ (كذا) الجامع مع المعلمين إلا أسرا (كذا) الروم الذين قدم بهم من الأندلس، ففي شهر رمضان من سنة سبع وسبعين وستمئة تم الجامع المذكور وصُلي فيه».

يتكون هذا المسجد الجامع من بيت للصلاة، وثلاثة أروقة أخرى حول صحن مكشوف، وتتسم عقود بيت الصلاة الحدوية المدببة، بالاتجاه العمودي على جدار القبلة، وهي السمة الغالبة في تخطيط المساجد الجامعة بالمغرب الأقصى في العصرين المرابطي والموحدي. وعلى الرغم من هذا، فإن تخطيط هذا الجامع يمكن اعتباره النموذج الأول والأمثل لإحياء النمط القرطبي بتخطيط مساجد بلاد المغرب الأقصى؛ حيث تميز بيت الصلاة بالاتجاه نحو العمق اقتداءً بجامع قرطبة منذ عهد الأمير عبد الرحمن الداخل (١٧٠-١٧١هـ/ ٧٨٦-٧٨٧م)، بدلًا من الاتجاه نحو العرض بمساجد المرابطين والموحدين، كما أن الأروقة الثلاثة الأخرى حول الصحن، يتكون كلٌّ منها من بلاطة واحدة فقط، مثلما هو الحال أيضًا بجامع قرطبة ضمن توسعة الأمير عبد الرحمن الأوسط (٢١٨-٢٣٤هـ/ ٨٣٣-٨٤٨م)، وخلافًا كذلك لمساجد العصرين المرابطي والموحدي، وأخيرًا، فإن كلًا من البلاطتين الطرفيتين من بيت الصلاة أقل اتساعًا من البلاطات الواقعة على يمين ويسار البلاط المحوري الأكثر اتساعًا منها جميعًا، وهذا أيضًا تقليدٌ وفيٌّ لتخطيط بيت الصلاة بجامع قرطبة في عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط، وفي الوقت ذاته على خلاف مساجد المرابطين والموحدين.

كل هذه الخصائص المعمارية مجتمعة تحمل على القول - كما سبق ذكره - إن هذا المسجد الجامع يعد النموذج الأول والأمثل لإحياء النمط القرطبي التقليدي في تخطيط مساجد بلاد المغرب، ليس خلال العصر المريني بكلٍّ من المغربين الأقصى والأوسط فقط، بل وخلال العصر السعدي كذلك بحاضرة مراكش، وهو ما يدفع إلى الاعتقاد أن تخطيط وعمارة هذا الجامع إنما كانا على يد المدارس الأندلسية، والقرطبية على وجه التحديد.

أيضًا من بين الخصائص المعمارية المهمة التي تميز بها هذا الجامع، قبة البهو التي تعلو نهاية البلاط المحوري من جهة الصحن، وهي من النوع المعروف بـ«القبة ذات الضلوع المتقاطعة»، والتي ترجع في أصولها إلى القباب الثلاث التي تعلو مربع محراب ومقصورة

جامع قرطبة من عهد الحكم المستنصر (٣٥١- ٣٥٥هـ/ ٩٦٢-٩٦٦م)، وهذه القبة تؤكد من جانب آخر أثر الحضور الأندلسي القرطبي في عمارة وتخطيط هذا الجامع، كما نلمس هذا التأثير الأندلسي أيضًا في صومعته الشامخة ذات الدخلات الرأسية التي تتخلل واجهتها الشمالية الشرقية، على غرار صومعة الخيرالدا بإشبيلية.

ويمكننا الإشارة أخيرًا إلى إحدى التحف الفنية الفريدة التي اختص بها هذا الجامع، وهي الثريا الكبرى المعلقة بمنتصف البلاط المحوري من بيت الصلاة، وهي تحمل نقشًا تسجيليًّا يؤرخها بعام ٦٧٨هـ/ ١٢٧٩م، كما جاءت على غرار الثريا الكبرى التي ترجع إلى العصر الموحدي بجامع القرويين، غير أنها أقل شأنًا منها، وإن كانت لا تخلو في الوقت ذاته من سمات فنية رائقة، تذكّر بفنون عصر الخلافة بقرطبة، وهو ما يؤكد مرة أخرى على الحضور القوي للمدارس الأندلسية القرطبية في عمارة وفنون هذا المسجد الجامع، الذي دار بمربع محرابه مقصورة بديعة، كانت محل قرار الأمير وحاشيته عبر الباب المفضي إليها من القصر السلطاني بهذه المدينة الملكية؛ فاس الجديدة.

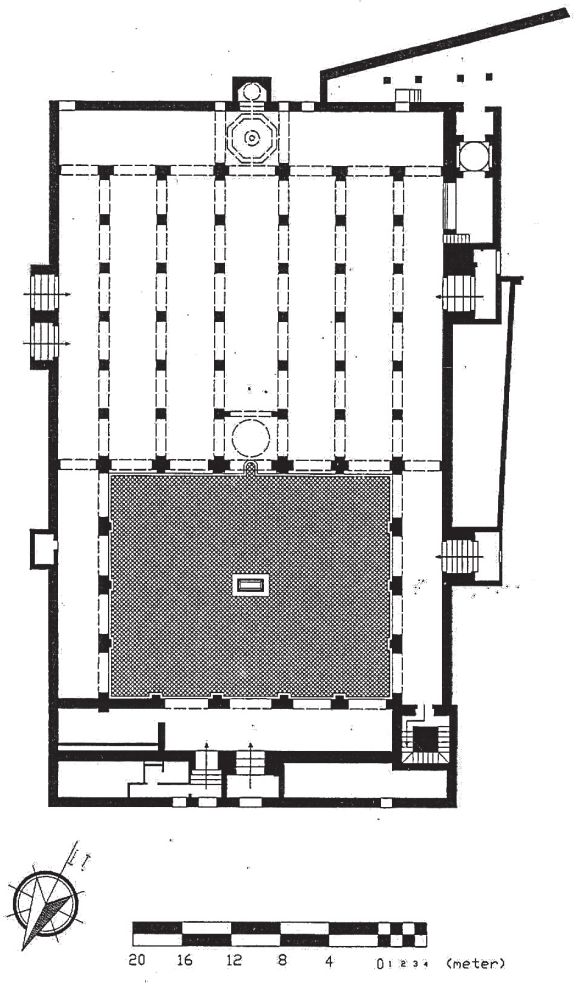

مسقط أفقي للجامع الكبير بفاس الجديدة.

الجامع الكبير بفاس الجديدة؛ واجهة بيت الصلاة المطلة على الصحن.

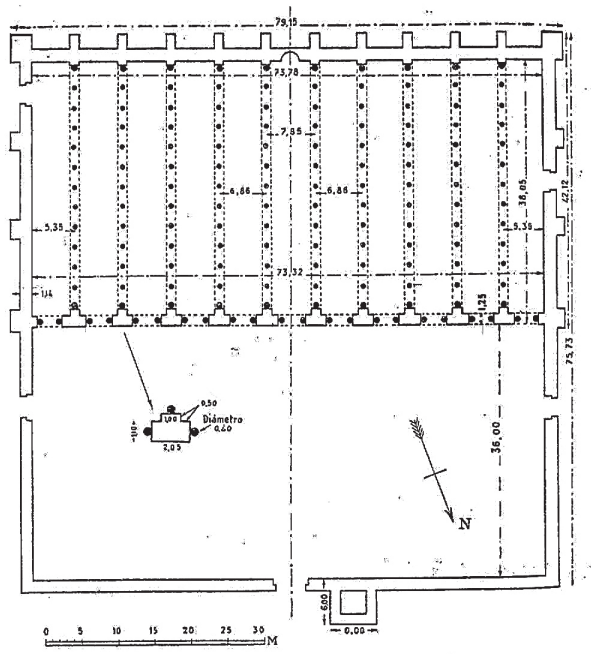

مسقط أفقي لجامع قرطبة، في عهد عبد الرحمن الأوسط.

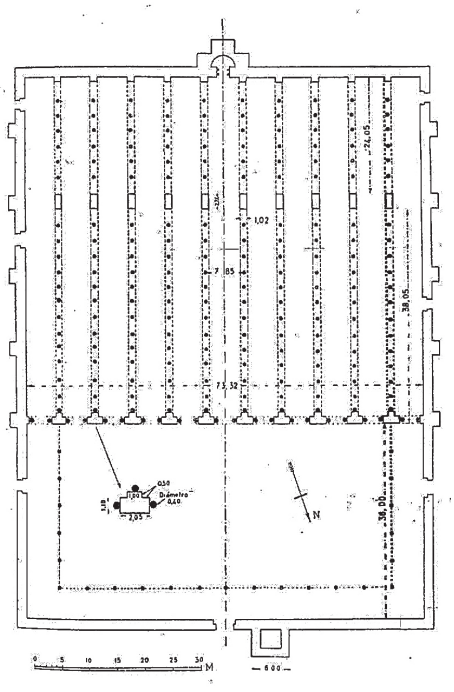

مسقط أفقي لجامع قرطبة، في عهد عبد الرحمن الداخل.

الجامع الكبير بفاس الجديدة؛ عقود بيت الصلاة.

قبة البهو بالجامع الكبير بفاس الجديدة.

صومعة الجامع الكبير بفاس الجديدة.

مسجد أبي الحسن

يقع هذا المسجد بالطالعة الصغرى من عدوة القرويين بفاس البالي، وهو من أعمال السلطان أبي الحسن المريني عام ٧٤٢هـ/ ١٣٤١م، كما هو منقوش بلوحة التحبيس الخاصة بالمسجد. وعلى الرغم من صغر مساحة هذا المسجد - لكونه من مساجد الفروض - فإن تخطيطه يتسم بالاتزان والانسجام، كما يتبع النمط التقليدي المكون من صحن مكشوف تحيط به الأروقة.

ومن أهم ما يتميز به هذا المسجد، صومعته الرائقة التي تعلو مدخله الرئيسي، فهي من جهة تتبع النمط التقليدي لصوامع بلاد المغرب والأندلس، ومن ناحية أخرى تشهد على تطورات مهمة في أساليب زخرفة الصوامع خلال العصر المريني، من حيث تنوع الشبكات المعينية التي تزين واجهاتها الأربع، فضلاً عن تعميم تكسيتها ببلاطات الزليج متعددة الألوان والأشكال الهندسية، وعلى الأخص منها زخرفة الأطباق النجمية المماثلة لنظيراتها بقصور الحمراء بغرناطة. وبالإضافة إلى الصومعة، فهناك أيضًا تلك الشرّافة الخشبية عجيبة النقش، التي تعلو المدخل الرئيسي للمسجد، وهي تعد من النماذج النادرة بجماليتها الفنية الفائقة بمساجد العصر المريني.

النقش الكتابي الخاص بتحبيس المسجد، والمؤرخ بعام ٧٤٢هـ.

الشرافة الخشبية التي تعلو المدخل الرئيسي.

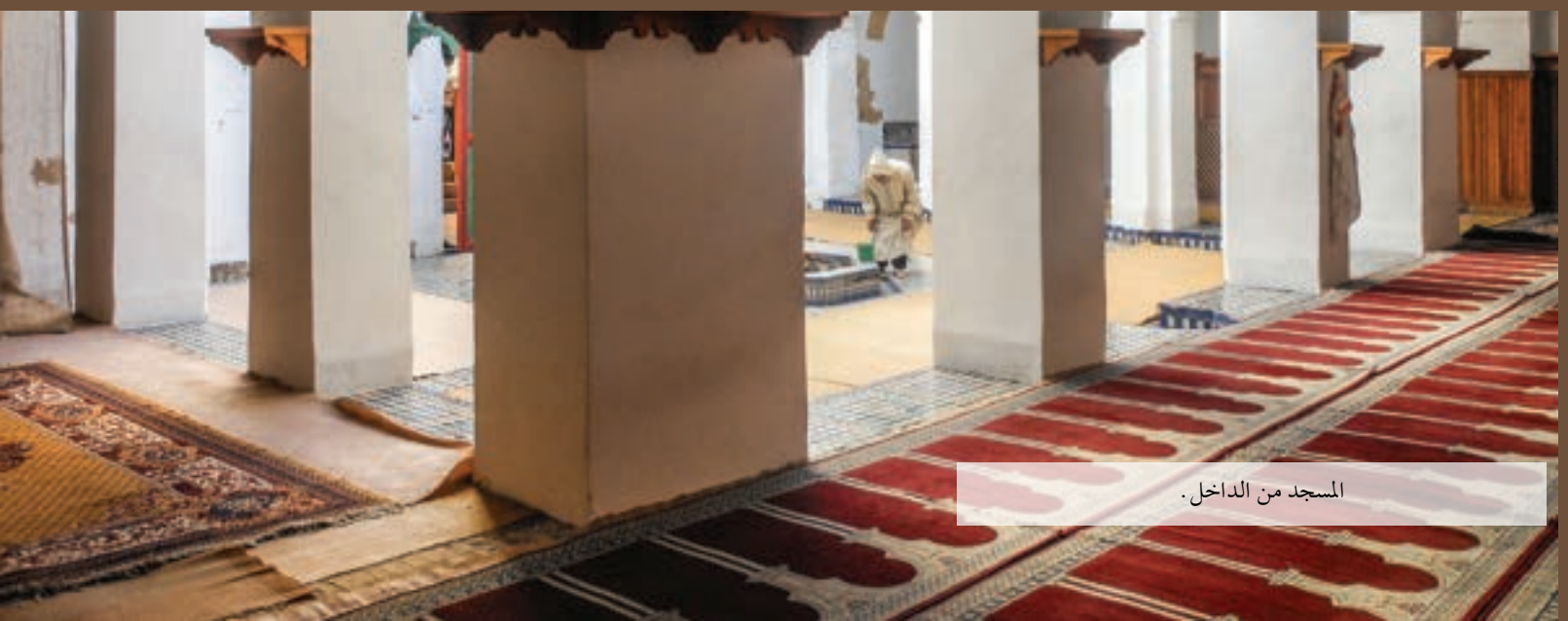

المسجد من الداخل.

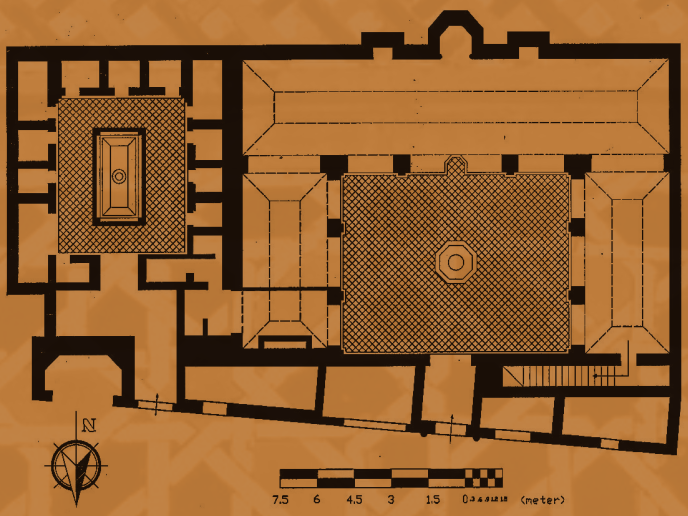

مسقط أفقي لمسجد أبي الحسن.

تفاصيل من زخارف الشرافة الخشبية التي تعلو المدخل الرئيسي.

صومعة مسجد أبي الحسن.

تفاصيل من التكسية الخزفية التي تزدان بها صومعة مسجد أبي الحسن بفاس.

صومعة جامع الشرابليين.

جامع الشرابليين

يقع هذا الجامع بحومة الشرابليين من عدوة القرويين، على يمين المنحدر من الطالعة الكبرى إلى قلب مدينة فاس البالي حيث جامع القرويين، وهو أيضًا من أعمال السلطان أبي الحسن المريني، حسب ما أفاد به ابن مرزوق التلمساني في معرض حديثه عن المساجد والجوامع التي بناها العاهل المذكور بمدينة فاس. وتخطيط هذا الجامع يتبع النمط التقليدي المكون من صحن أوسط مكشوف تحيط به الأروقة، رغم ما أُدخلت عليه من بعض أعمال التوسعة والزيادة في فترات لاحقة من العصر العلوي خلال عهد كلٍّ من المولى محمد بن عبد الله (١١٧١-١٢٠٤هـ/ ١٧٥٧-١٧٨٩م)، وخلفه المولى سليمان (١٢٠٦-١٢٣٨هـ/ ١٧٩١-١٨٢٢م)، كما أن سقايته الملحقة بالطرف الغربي من واجهته الشمالية الغربية، تحمل نقشًا يؤرخها بعام ١٢٥٥هـ/ ١٨٣٩م، من عهد المولى عبد الرحمن ابن هشام (١٢٣٨-١٢٧٦هـ/ ١٨٢٢-١٨٥٩م).

لم يتبقَّ من آثار العصر المريني بهذا الجامع سوى صومعته البديعة، التي جاءت على غرار صومعة مسجد أبي الحسن؛ حيث لعب الزليج دورًا رئيسيًّا في تكسية واجهاتها الأربع المحلاة بالشبكات المعينية، كما تميزت ببعض النقوش الكتابية المنفَّذة بالخط الكوفي الهندسي المربع، بطريقة الزليج المقشر؛ حيث نقرأ أسفل الواجهة الجنوبية الغربية عبارة «بركة محمد»، كما نقرأ أسفل الواجهة الجنوبية الشرقية - مع اتجاه عقارب الساعة - ما نصه: «الله محمد أبو بكر عمر عثمان علي رضي الله عنهم أجمعين».

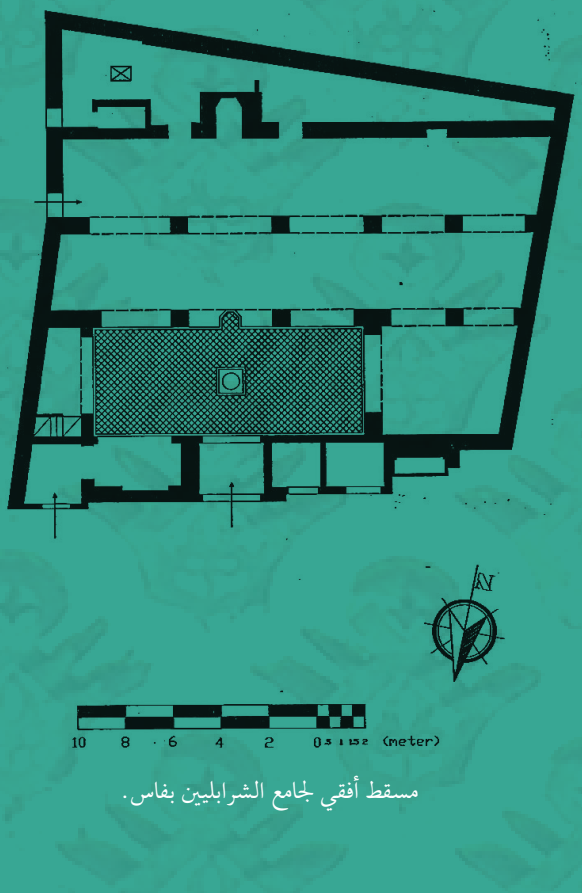

مسقط أفقي لجامع الشرابليين بفاس.

تفاصيل من زخارف الصومعة بجامع الشرابليين بفاس، وهي عبارة عن خط كوفي هندسي مربع نصه: «بركة محمد».

تفاصيل من زخارف الصومعة بجامع الشرابليين بفاس، وهي عبارة عن خط كوفي هندسي نصه:
«الله محمد أبو بكر عمر عثمان علي رضي الله عنهم أجمعين».

جامع الحمراء

يرجع تاريخ بناء هذا الجامع أيضًا إلى العصر المريني، وإن كان لا يُعرف تاريخ تأسيسه على وجه الدقة، غير أن الذي يمكن ترجيحه هو أنه من أعمال السلطان أبي عنان فارس فيما بين عامي (٧٥٢-٧٥٥هـ/ ١٣٥١-١٣٥٤م). ويقع الجامع بشارع السوق الكبيرة من فاس الجديدة، على يسار المتجه من باب المكينة إلى باب السمّارين. ويعد المسجدُ الجامعَ الثاني - بعد الجامع الكبير سابق الحديث عنه - بتلك المدينة الملكية.

يتميز هذا الجامع من الناحية المعمارية بأنه جاء تقليدًا لتخطيط الجامع الكبير؛ حيث تمتد عقود بيت الصلاة - الحدوية المدببة - في اتجاه عمودي على جدار القبلة، كما يتميز بيت الصلاة بالاتجاه نحو العمق وفق النمط القرطبي، وخلافًا لجوامع العصرين المرابطي والموحدي بالمغرب، هذا بالإضافة إلى البوائك الثلاث حول الصحن بواقع واحدة في كل جهة، سيرًا في ذلك أيضًا على النمط القرطبي، واتباعًا في الوقت ذاته لتخطيط الجامع الكبير من تلك المدينة الملكية.

يعكس هذا المسجد الجامع من الناحية الفنية صورًا صريحة للفن الأندلسي الغرناطي بقصور الحمراء. ولعل هذا الاقتران التام بين فنون ذلك الجامع وفنون قصور الحمراء بغرناطة، يحمل على الاعتقاد بتسمية الجامع بهذا الاسم «الحمراء»، وليس أدل على ذلك من نقوش واجهة محرابه البديعة، بالإضافة إلى العقود الزخرفية الدائرة بمربع هذا المحراب من جهاته الثلاث، والتي يتبين من نقوشها وزخارفها النباتية والهندسية والكتابية، التطابق الحقيقي بينها وبين نظائرها بقصور حمراء غرناطة، هذا فضلًا عن القبة الخشبية ذات الزخرفة النجمية التي تعلو مربع المحراب أيضًا، والتي لا نقف لها على نماذج سابقة في الفن الأندلسي المغربي بتلك الهيئة الزخرفية - المكونة من زخرفة الطبق النجمي - قبل قصور الحمراء في غرناطة. وأخيرًا، فإن صومعة الجامع تُبرز هي الأخرى مزيدًا من ألوان الجمال والبهاء بتنوع شبكاتها المعينية بكل واجهة من واجهاتها الأربع، فضلًا عن تكسيات الزليج (البلاطات الخزفية) الرائقة بألوانها وأشكالها الهندسية التي تتخلل تلك التشبيكات المعينية.

صحن جامع الحمراء بمدينة فاس الجديدة؛ واجهة بيت الصلاة.

صومعة جامع الحمراء بمدينة فاس الجديدة.

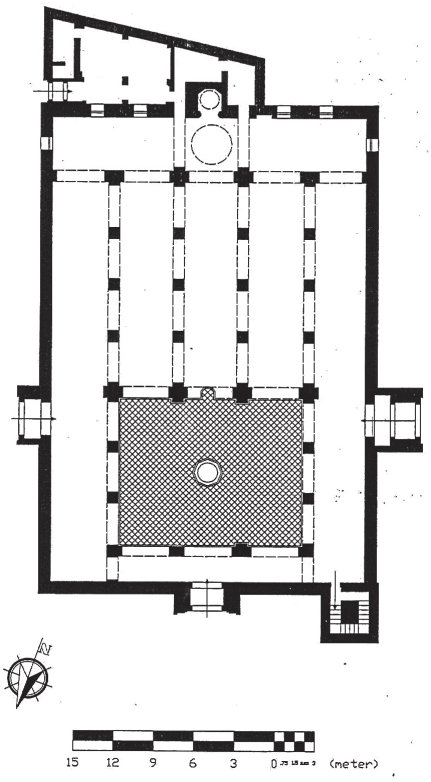

مسقط أفقي لجامع الحمراء بفاس الجديدة.

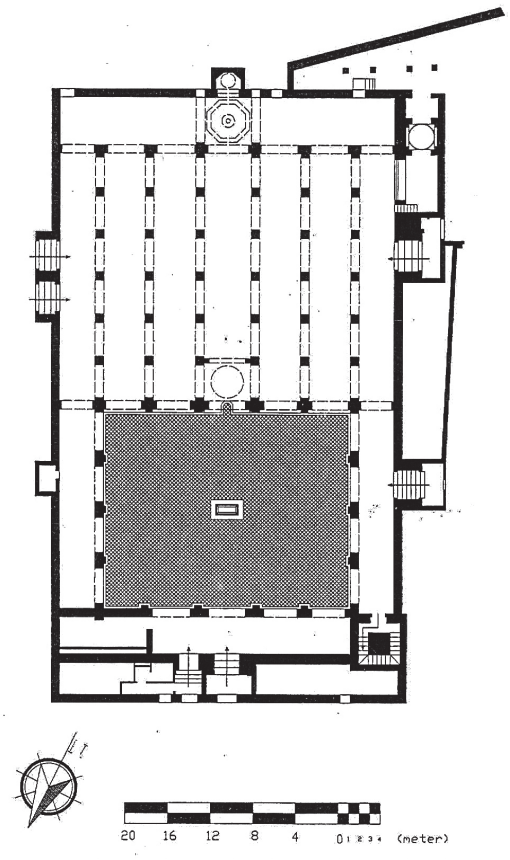

مسقط أفقي للجامع الكبير بفاس الجديدة.

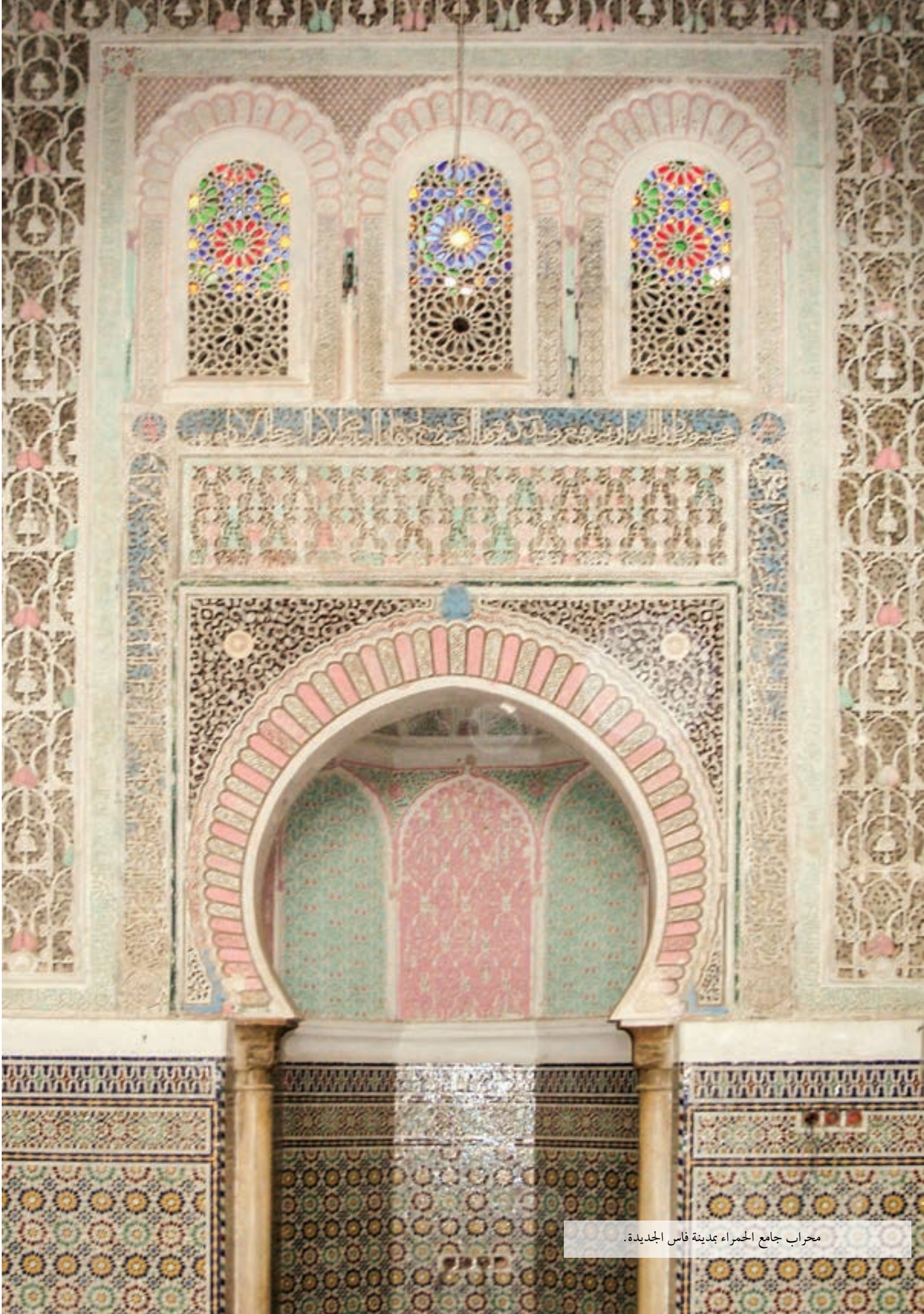

محراب جامع الحمراء بمدينة فاس الجديدة.

مسجد الزهر

يقع هذا المسجد بالمدينة السلطانية؛ فاس الجديدة، مما يلي القصور الملكية من جهتها الجنوبية، وهو من مساجد الفروض أي الصلوات الخمس، التي ترجع إلى عهد أبي عنان فارس عام ٧٥٩هـ/ ١٣٥٧م على وجه الدقة، حسب ما يشير إليه النقش التسجيلي الذي يعلو عقد مدخله الرئيسي، ونصه: «أمر ببنا هادا (كذا) المسجد المبارك مولانا الإمام العادل أبو عنان نفعه الله به وتم بابه هاذا (كذا) بتاريخ أوايل شهر رجب الفرد المبارك من عام تسعة وخمسين وسبعماية».

كان المسجد يعرف قديمًا - حسب ما يرد في الحوالات الحبسية - بمسجد/ جامع «الحجر»، ومرد هذه التسمية - بلا شك - هو ما تفرد به دون غيره من مساجد مدينة فاس كلها، بواجهة مدخله الرئيسي الحجرية، والتي أضفت على ذلك المسجد أهمية خاصة من الناحيتين المعمارية والفنية. وتفيد الرواية الشفهية أن هذا المدخل إنما تم إنجازه ببلاد الأندلس، ثم نقل بعد ذلك حجرًا حجرًا لهذا المسجد بهذه المدينة الملكية؛ فاس الجديدة.

ويعكس تخطيط هذا المسجد نمطًا فريدًا بين مساجد بلاد المغرب الأقصى كلها؛ حيث يتكون من تسع مساحات مربعة لكلٍّ من بيت الصلاة، والصحن المكشوف، والمجنبتين. ولعل هذا التخطيط المكوَّن من هذه الفراغات التسعة يذكِّر من الوهلة الأولى بتخطيط أحد النماذج المهمة المبكرة ببلاد الأندلس، ألا وهو مسجد «باب المردوم» بطليطلة (٣٩٠هـ/ ٩٩٩م). أما من الناحية الفنية، فلا تزال نقوش وزخارف واجهة محراب هذا المسجد ناطقة بالتأثيرات الأندلسية الصريحة، المماثلة لنظائرها بقصور الحمراء بغرناطة، وهو ما يؤكد الصلات الفنية الكبرى بين مملكة فاس المرينية ومملكة غرناطة النصرية في عهد أبي عنان فارس المريني (٧٤٩-٧٥٩هـ/ ١٣٤٨-١٣٥٧م)، وكلٍّ من يوسف الأول (٧٣٣-٧٥٥هـ/ ١٣٣٣-١٣٥٤م)، وخلفه محمد الخامس الغني بالله (٧٥٥-٧٩٤هـ/ ١٣٥٤-١٣٩١م)، واللذين إليهما ترجع أهم الأعمال المعمارية والفنية بقصور الحمراء.

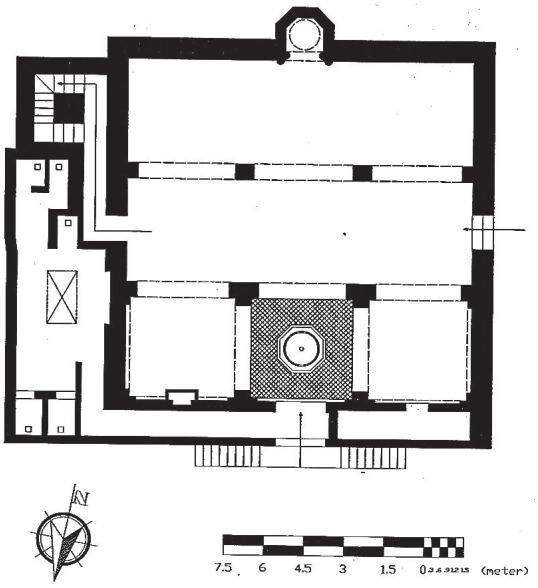

مسقط أفقي لمسجد الزهر بفاس الجديدة ٧٥٩هـ/ ١٣٥٧م.

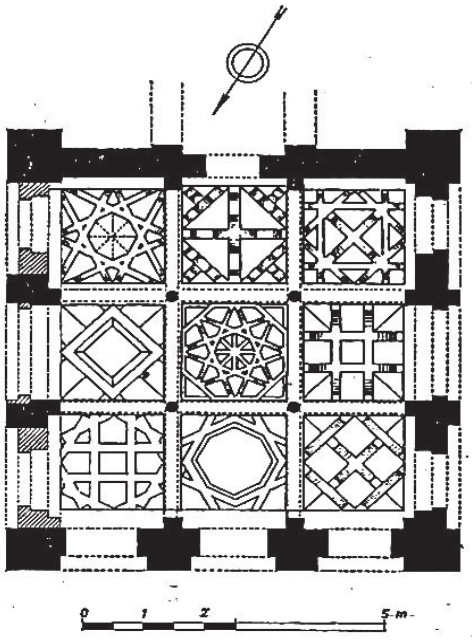

مسقط أفقي لمسجد «باب المردوم» بطليطلة.

المدخل الرئيسي لمسجد الزهر بفاس الجديدة ٧٥٩هـ/ ١٣٥٧م.

تفاصيل من المدخل الرئيسي لمسجد الزهر؛ حيث يوجد النقش الكتابي الخاص بتأسيس المسجد، والمؤرخ بأوائل شهر رجب ٧٥٩هـ.

محراب مسجد الزهر بفاس الجديدة.

تفاصيل من المحراب.

جامع الرصيف

يقع هذا المسجد الجامع بمنطقة الرصيف من عدوة القرويين، ولهذا حمل ذلك الاسم «جامع الرصيف»، وهو من أعمال المولى سليمان بن محمد بن عبد الله العلوي، كان قد أمر ببنيانه أخوه المولى اليزيد، ثم أكمل عمارته المولى سليمان بين عامي (١٢١٠-١٢١٢هـ/ ١٧٩٥-١٧٩٧م).

ولهذا الجامع أربعة مداخل خارجية، أهمها المدخل الرئيسي الواقع برحبة الزبيب؛ حيث يعكس مزيدًا من المظاهر الفنية التي انتشر تداولها خلال العصر العلوي، كتزيين بنيقات (كوشات) العقود بالزخارف النباتية المورقة، المنفذة بأسلوب الزليج المقشر ذي اللون الأخضر، فضلًا عن الشرافات الخشبية التي تعلوها، المصبوغة بالدهانات متعددة الألوان.

ومن أهم ما يتسم به تخطيط هذا الجامع، هو أن عقود بيت الصلاة تمتد في اتجاه موازٍ لجدار القبلة، على خلاف ما كان شائعًا خلال العصور الإسلامية السابقة، بدءًا من العصر المرابطي، ومرورًا بكلٍّ من العصرين الموحدي والمريني، ثم انتهاءً بالعصر السعدي، والذي كانت تمتد فيها عقود بيت الصلاة في اتجاه عمودي على جدار القبلة. والجدير بالذكر أن هذا التحول الجوهري في تخطيط بيت الصلاة بالمساجد الجامعة خلال العصر العلوي، إنما كان ابتداءً منذ عهد السلطان المولى إسماعيل ابن الشريف بمساجده الجامعة بحاضرته الملكية؛ مدينة مكناس.

وكذلك، فإن صومعة الجامع، تعكس هي الأخرى نمطًا جديدًا على خلاف ما كان شائعًا بالعصور السابقة؛ من حيث اختفاء زخرفة الشبكات المعينية بواجهاتها، وكذلك غياب التكسيات

المدخل الرئيسي لجامع الرصيف بفاس.

الشرافة الخشبية المصبوغة بالدهانات الملونة التي تعلو المدخل الرئيسي لجامع الرصيف بفاس.

الزليجية (الخزفية) متعددة الألوان والأشكال التي تميزت بها صوامع العصر المريني تحديدًا، فاقتصرت هنا على بلاطات مربعة باللون الأخضر، تؤطر حدود واجهات الصومعة بالجهات الأربع، وهذا أيضًا من بين السمات التي تميزت بها صوامع مساجد العصر العلوي منذ عهد السلطان المولى إسماعيل العلوي بمساجد حاضرته مكناس.

ونلفت الانتباه أخيرًا إلى أنه من بين الخصائص الفنية التي تميز بها هذا الجامع تلك الأعمدة الرخامية وتيجانها، الواقعة على جانبي دخلة المحراب؛ حيث يزين تلك الأعمدة نقش كتابي نصه: «النصر والتمكين والفتح المبين لمولانا الإمام أبي العباس أحمد المنصور بالله أمير المؤمنين الشريف الحسني». ولعل هذا النقش يحمل على القول إن هذه الأعمدة إنما هي من خرائب قصر البديع – ذائع الصيت – بحاضرة مراكش، والذي كان قد أمر ببنائه السلطان أحمد المنصور السعدي، وبدأت عوامل الهدم والتخريب الكلي فيه على يدي السلطان المولى إسماعيل العلوي.

من خلال العرض الموجز السابق، تتضح الأهمية المعمارية والفنية الكبرى لمساجد مدينة فاس خلال العصور الإسلامية المتعاقبة، والتي تعكس مزيدًا من الخصائص المعمارية والفنية ذات الصبغة الأندلسية المغربية، التي تميزت بها كلٌّ من بلاد الأندلس والمغرب الأقصى.

تتجلى تلك السمات إجمالًا في التخطيط العمودي لبيت الصلاة، بما يعلوه من أسقف جمالونية مغطاة بالقرميد ذي اللون الأخضر، هذا بالإضافة إلى المحراب مضلع المسقط، الذي بدأ ظهوره بمساجد المغرب الأقصى مع العصر المرابطي بجامع القرويين من مدينة فاس، تحت تأثير محراب جامع قرطبة من عهد الحكم

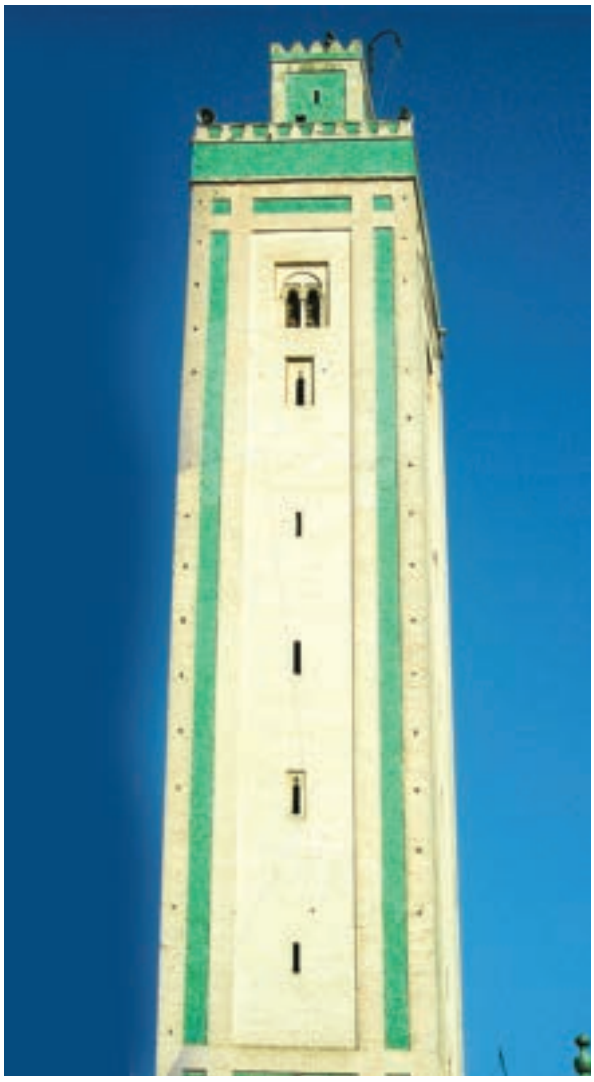

صومعة جامع الرصيف بفاس.

بيت الصلاة بجامع الرصيف بفاس.

المستنصر، وعلى جانبي المحراب مباشرة يُفتح كلٌّ من بابي بيت المنبر وبيت الإمام، وهي سمة عمّ انتشارها كذلك بمساجد المغرب الأقصى في العصور المتعاقبة منذ بلورتها بجامع القرويين من تلك المدينة الحاضرة خلال التوسعة المرابطية. وإلى جانب هذا، فهناك العقود المتجاوزة (الحدوية)، سواء أكانت دائرية حسب ما شاع في العصر المرابطي، أم مدببة حسب ما انتشر خلال العصور اللاحقة، وهي في كلٍ من الحالين تعكس تأثرًا كبيرًا بعقود مساجد بلاد الأندلس منذ جامع قرطبة على عهد الأمير عبد الرحمن الداخل (١٧٠-١٧١هـ/ ٧٨٦-٧٨٧م).

الصومعة (المئذنة) هي الأخرى من الملاحق المعمارية ذات الأهمية الكبرى بمساجد بلاد المغرب الأقصى عمومًا ومدينة فاس خاصة؛ حيث تُبرز صومعة جامع القرويين تأثرًا شديدًا بنمط الصوامع القرطبية في عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط، وهي - أي صومعة جامع القرويين - تعد أقدم نموذج باقٍ لهذا النمط التقليدي ذي المسقط المربع بمساجد المغرب الأقصى، والذي كتب له الانتشار فيما تلا من العصور الإسلامية، تحت التأثير الأندلسي القرطبي خلال عصري الإمارة والخلافة.

في الختام، فإن الثريات المعدنية التي تزين بيوت الصلاة بالمساجد الجامعة بتلك المدينة، كالثريا الكبرى بجامع القرويين، وتلك الأخرى بالجامع الكبير من فاس الجديدة؛ دالة بكل تأكيد على الثراء الزخرفي والقيمة الفنية الرفيعة لهذا النوع من التحف التطبيقية بمساجد مدينة فاس على وجه التحديد. ولعل هذه الخصائص المعمارية والفنية مجتمعة مما تميزت به مساجد بلاد المغرب الأقصى عن نظيراتها ببلاد المشرق ومصر، بما يضفي عليها مزيدًا من الأهمية التاريخية على وجه العموم، ومساجد مدينة فاس على وجه الخصوص.

تفاصيل من الأعمدة الرخامية بجامع الرصيف بفاس.

نقش كتابي بالأعمدة الرخامية.

أسقف جامع الرصيف بفاس.

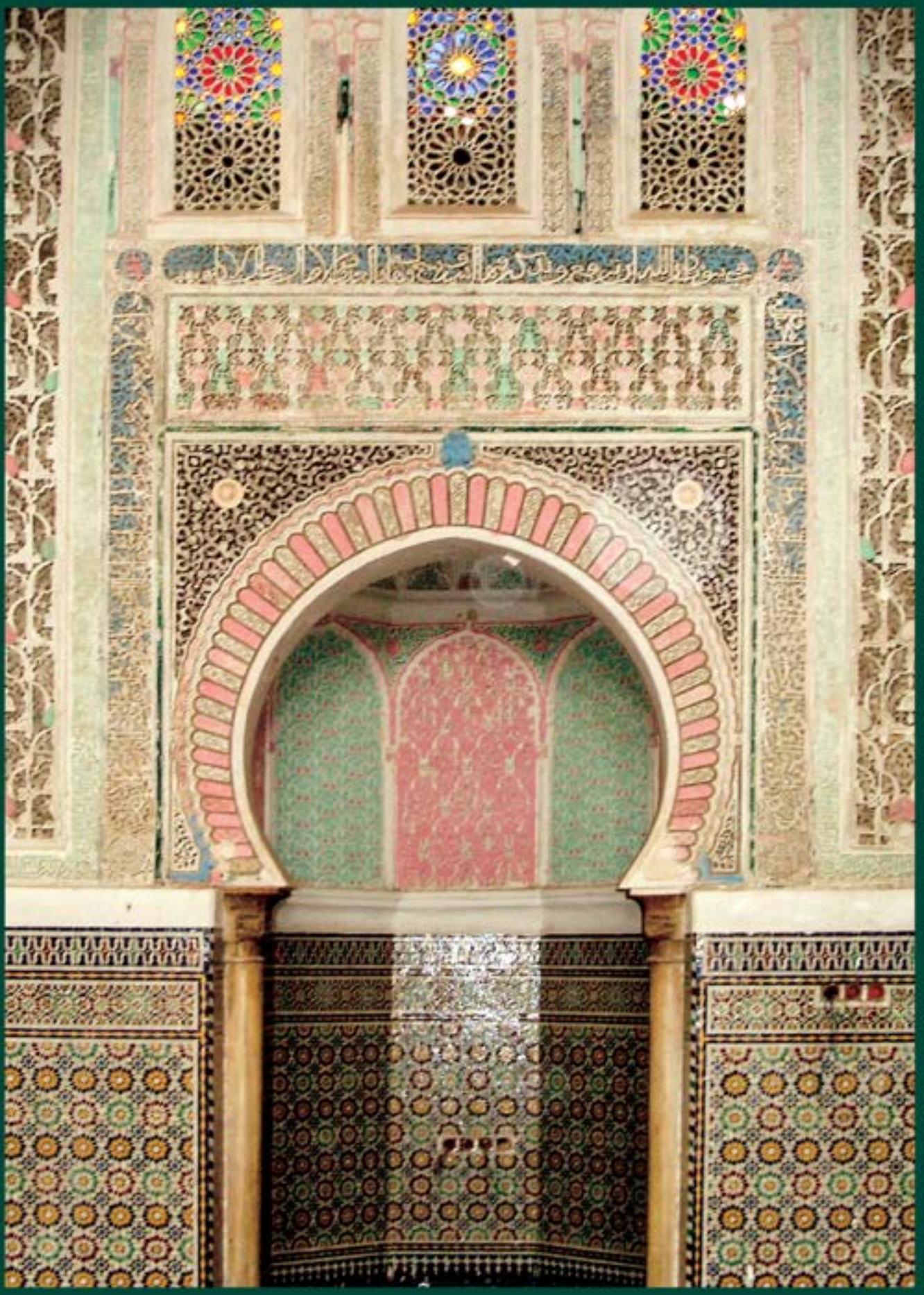

من إصدارات مكتبة الإسكندرية

أبحاث المؤتمر الدولي

الحضارة الإسلامية في الأندلس